

فلسفة التعايش السلمي بين الأديان

بحث مقدم لمؤتمر كلية العلوم الإسلامية بجامعة صلاح الدين

د. عرفات كرم ستوني

arafat.stuni1972@gmail.com

2014

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كرم الله هذا الإنسان تكريماً، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي
الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً} ¹ ولا
قيمة لهذا التكريم إذا لم يكن الإنسان حراً في إرادته واختياره، وهذه الحرية التي
يملكها الإنسان جزء من حياته، لا يتجزأ عنها، وهي هبة إلهية، فكل من يحاول
تقييدها وتكبيدها وفق رغبته وإرادته فهو يرتكب جرماً بحق الإله وبحق الإنسانية،
ولهذا قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم

¹ سورة الإسراء الآية 70.

أمهاتهم أحراراً²، ولقد وهب الله تعالى هذه الحرية للإنسان لكي يحسن الاختيار، قال تعالى {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ} ³، وفي الوقت نفسه حذر الله نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) من إكراه الناس على الدخول في الإسلام، لأن الإكراه والقسر والإجبار منافي للحرية الإنسانية، ولقد نفى الله تعالى الإكراه مطلقاً، حيث قال { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } ⁴، لأن الإكراه عبارة عن صناعة قناعة ظاهرية، وهذه الحالة غير الطبيعية تتحول مباشرة إلى نفاق ديني، وما أكثر الأمثلة على ذلك، فالقناعة لا يمكن أن تحصل إذا لم يكن صاحبها حراً، ولهذا لم يسلم من أسلم من الصحابة إلا عن قناعة، وهذه القناعة بكل تأكيد تأتي بعد الحرية المطلقة، وانظر ماذا حصل بالفعل في عهد (الحاكم بأمر الله) حيث أكره الكثيرين من أهل الذمة على الدخول في الإسلام، ولكن بعد مجيء الخليفة (الظاهر) سمح للمسيحيين بالعودة إلى دينهم⁵، لأنهم دخلوا فيه خوفاً ورهبة وقسراً، ولم يدخلوا فيه طوعاً ورضاً، وهذا النموذج لا يمثل الإسلام في شيء، بل هو تصرف شخصي لا يمكن قبوله، لأنه منافي لأعظم قواعد الإسلام الثابتة في القرآن الكريم الصريح الواضح الجلي، ومخالف للسنة النبوية الصحيحة، ولعمل الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام، فهو لم يكن حاكماً بأمر الله كما هو مبين من لقبه، بل كان حاكماً وفق رأيه واجتهاده⁶.

ولقد ذكر الفقهاء عدم صحة إسلام المكره من أهل الذمة، إلا إذا كان طوعاً، قال ابن قدامة المقدسي: "وإذا إكراه على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم، لم يثبت له حكم الإسلام، حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعاً"⁷.

ولما كان الإنسان حراً في إرادته واختياره، فإنه سيختار لنفسه عقيدة وديناً، سواء كان ذلك عن قناعة شخصية مبنية على إرادته واختياره {فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر} أو يكون عن طريق تلقين الوالدين، قال (صلى الله عليه وسلم): "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه"⁸، وفي كلتا الحالتين يملك الإنسان حريته، فإذا كان التلقين في الصغر من قبل الوالدين، فإن هذا

² يوسف بن حسن بن عبد الهادي الميرد: محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تحقق: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن (المدينة النبوية، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، ط1، 1420هـ/2000م) 473/2.

³ سورة الكهف الآية 29.

⁴ سورة البقرة الآية 256.

⁵ نقلاً من منقذ السقار: غير المسلمين في المجتمع المسلم ص11. وقد نقله السقار من : د.أس.ترتون: أهل الذمة في الإسلام: ترجمة وتحقيق: حسن الحبشي(مصر، ط3، 1994م) ص214.

⁶ كان الحاكم بأمر الله الفاطمي رجلاً طائشاً، وتعد فترته من أغرب الفترات، حكم مصر وهو صغير في (996-1121هـ).

⁷ ابن قدامة: المغني (بيروت، دار الفكر، ط1، 1405هـ) 96/10.

⁸ الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة (الرياض، مكتبة المعارف، د.طبت) 367/1.

التلقين قد يتغير بمجرد وصول الطفل مرحلة البلوغ، وهي مرحلة الحرية والنضوج والاختيار، فليس شرطاً أن يبقى ذلك التلقين على طبيعته، فكم من طفل تلقى من الوالدين دينه وعقيدته، لكنه بعد البلوغ تحول من دينه إلى آخر، ومن عقيدته إلى أخرى، وهذه الحالة لا تفتأ ثابوية في المجتمعات الغربية، حيث نجد دخول الكثيرين منهم في الإسلام، وهؤلاء غيروا دينهم من غير قسر ولا إكراه، بل عن طواعية وقناعة واختيار مجرد، فالبشرية عندما تكون حرة الإرادة والاختيار سيكون ذلك عاملاً مهماً في تحقيق التعايش السلمي بين الأديان والقوميات، وعندما تتدخل قوة أخرى في التحكم في قناعات الناس واختيارهم، وخاصة تلك الفئات المتزمتة في كل دين، سيكون ذلك تهديداً خطيراً للتعايش السلمي، وعندها سيكون مصير البشرية مهدداً بهذه العقول المريضة، التي لا تتحمل وجود التنوع الديني والمذهبي وما شابه ذلك، وعليه فإن واجب أشياع الديانات والمذاهب أن تتوحد وتتحد في سبيل الوقوف أمام هذه الجماعات المتطرفة التي تحاول أن تعكر صفو هذا التعايش، وتكدر جمال هذه الحياة المستقرة، فإن أي تهديد لهذا التعايش سيكون خطراً عظيماً على أبناء البشرية جمعاء، والتاريخ الإنساني حافل بنماذج مؤسفة حزينة مؤلمة. ولهذا قال عالم اللاهوت الديني السويسري هانز كونج Hans Kung

" There will be no peace among the nations without peace among the religions, there will be no peace among the religions without dialogue among the religions"⁹.

" : لن يكون هناك سلام بين الأمم، ما لم يكن هناك سلام بين الأديان، ولن يكون هناك سلام بين الأديان، ما لم يكن هناك حوار بين الأديان"¹⁰.

لا يمكن للحياة أن تستمر لو كان الأصل في العلاقات بين الأمم والشعوب والدول الحرب والقتال بدل السلم والوئام، والحقيقة أن الأصل هو السلم والأمان، ولهذا قال تعالى { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ }¹¹، والخطاب عام موجه إلى المسلمين كافة لتطبيقه مع غيرهم، وبهذه القاعدة وعلى هذا الأساس تقوم الحياة البشرية وتستمر وتتطور وتتقدم، فالرب تعالى خلق هذا الكون وأودع بين لابتية هذه البشرية على اختلاف لغاتها وألوانها، خلق الله تعالى الكون أولاً، ثم البشرية لتسكن فيه، وأصل البشرية انبثق من آدم (عليه السلام) ثم خلق منه حواء زوجة له لتنتشر البشرية منهما، وذلك من أجل إعمار الأرض، ولتأسيس حياة بشرية جديدة لتكون لبنة جديدة في بناء الحياة الجديدة على هذه الأرض التي نسكن عليها، ونعيش فيها، إذن كانت بداية البشرية من آدم وحواء، فهما منبع البشرية وأصلها، قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

⁹ <http://en.wikiquote.org/wiki/Hans>.

¹⁰ أليكس جورافسكي: الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم ترجمة خلف محمد الجراد (دمشق، دار الفكر، ط2، 1425هـ، 2005م) ص8.

¹¹ سورة البقرة الآية 208.

وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا { 12، وقال (صلى الله عليه وسلم): "كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب"¹³، ثم بين النبي (صلى الله عليه وسلم) بقوله: "الأنبياء اخوة لعلات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد"¹⁴ أي أن الأنبياء دينهم واحد، ولكن الشرائع مختلفة، لأن مصالح الناس تتغير وتتغير حسب الزمان والمكان، ولهذا قال اخوة لعلات أي أبوهم واحد وهو الدين والعقيدة، وأمهاتهم شتى أي شرائعهم مختلفة، والأصل العقيدة لأنها الأساس في العلاقة مع الله تعالى، ولما أدرك علي بن أبي طالي (رضي الله عنه) أن في مصر أتباعا لديانات أخرى كالمسيحيين الأقباط، أوضح لواليه على مصر وأعمالها (الأشتر النخعي) حين اضطرب أمر محمد بن أبي بكر: "يا مالك إني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل و جور... والوصية طويلة، إلى أن قال: فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق"¹⁵.

فالناس كلهم على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم وعقائدهم اخوة في أصل واحد، أو رابط واحد وهو رابط الإنسانية، فجميعنا بلا استثناء اخوة في الإنسانية والبشرية، أي كلنا من أب واحد وأم واحدة، وهما آدم وحواء، فهذه الاخوة اخوة إنسانية، وهي مهمة وضرورية لبقاء الحياة البشرية في سلام وأمان ووثام وراحة واستقرار، ولو لم تبق هذه الاخوة لم يبق أي رابط يربط بين الناس على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ودياناتهم وعقائدهم، فهي رابطة عالمية ينبغي الذود عنها، والدفاع في سبيل بقائها، وعلى أساسها قامت المنظمات الدولية والإنسانية للدفاع عن حقوق الإنسان في كافة المجالات، وعلى أساسها منعت حروب وأوقفت، وعلى أساسها شكلت محاكم دولية، وعلى أساسها استقلت بعض الدول، وتفككت بعض الدول الأخرى، كل ذلك من أجل الحفاظ على حقوق الإنسان، وإن كنا لا نجهل المصالح السياسية والأطماع الدولية في كثير من المجالات، وهي معلومة لأكثر الناس، ولكن كلامنا مركز على الجانب الإنساني في تاريخ عالمنا الصغير.

ثم تأتي الأخوة الوطنية، حيث ثمة رابط يربط بين الشعوب المختلفة والأمم المتعددة في وطن واحد، وما أكثر الدول التي تتسم بهذه النوعية من التلون الأُممي والشعبي، ولنضرب بذلك مثلا، وخير مثال لتقريب الفكرة كردستان، حيث يعيش فيها الكرد والتركمان والعرب والمسيحيون والأيزيديون والكاكائيون وغيرهم، فالذي يجمع هذه الأصناف المختلفة الرابط الوطني، حيث كل فرد ينتمي إلى هذا الوطن، ويفتخر به، ويعتز بتاريخه وحضارته وتراثه وثقافته، فهذه الرابطة تجمعنا في أخوة وطنية حقيقية، فكل من يحاول زعزعتها وتفكيكها فهو يهدد الأمن الوطني وسلمه، ومثال ذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما فارق مكة - مسقط رأسه - لم يفارقها عن طواعية ورغبة، بل أخرج منها جبرا وقسرا وكرها من قبل قومه من

¹² سورة النساء الآية 1.

¹³ الألباني: صحيح الجامع الصغير (بيروت، المكتب الإسلامي، د. طبت) 425/1.

¹⁴ الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 181/5.

¹⁵ علي بن أبي طالب: نهج البلاغة جمعه ونسق أبوابه: الشريف الرضي، وشرحه وضبط نصوصه محمد عبده (بيروت، مؤسسة المعارف، ط1، 1410 هـ، 1990 م) ص 621-622.

الذين لم يؤمنوا به، ومع شدة ما عاناه من قومه من اضطهاد وتعذيب وإهانة وقتل فإنه لم ينكر الانتماء إلى هذا الوطن، وهذا البلد، فقد كان (صلى الله عليه وسلم) يعتقد أنه فرد ينتمي إلى هذا الوطن، وأنه لا يفتأ فرداً وعضواً في هذه البقعة المباركة، بل إنه صلى الله عليه وسلم بعث خمسمائة دينار إلى مكة حين قحطوا، وأمر بدفع ذلك إلى أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية، ليفرقا على فقراء أهل مكة، فقبل ذلك أبو سفيان وأبو صفوان، وقال: ما يريد محمد بهذا إلا أن يخدع شبابنا¹⁶.

ثم تأتي الاخوة القومية، ولهذا لما تأسس حلف الفضول لنصرة المظلوم ومنع الظلم شارك النبي (صلى الله عليه وسلم) فيه في شبابه، وبعد ظهور الإسلام لم يندم النبي (صلى الله عليه وسلم) في كونه شارك فيه، بل أثنى على ذلك الحلف ومدحه، حيث قال: "لقد شهدت مع عمومتي في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت"¹⁷. أضف إلى ذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) افتخر بقومه قائلًا: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب¹⁸، مع أن عبد المطلب مات على غير ملة الإسلام، لكن ذلك لا ينفي عنه انتمائه إلى قومه، فقد يستطيع الإنسان أن يغير دينه، فهو حر، وحسابه على الله يوم القيامة، ولكنه يستحيل أن يغير قوميته إلا من شذ من أصحاب النفوس الضعيفة الذين لا هم لهم إلا مصالحهم الشخصية.

وعندما نقرأ الآيات التي تناولت قصص الأنبياء والرسول، نجد أن الله تعالى جعل كل نبي أخاً لقومه، مع كفرهم وزندقته وطغيانهم، لأنه لا يمكن نفي القومية ولو اختلفت الأديان والمذاهب والعقائد، ولكنها أخوة قومية لا ضير فيها، خذ مثلاً قوله تعالى {وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا} ¹⁹، و {وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا} ²⁰، و {إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} ²¹، و {إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ} ²²، و {إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ} ²³ و {إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ} ²⁴، لكننا نلاحظ في قصة النبي شعيب (عليه السلام) أمراً مختلفاً، ولعله يتحول إلى سؤال وجيه من سائل حصيف، فلقد قال الله تعالى مرة {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} ²⁵، وفي الآية الأخرى قال {إِذْ قَالَ لَهُمُ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} ²⁶، ولم يقل: إذ قال لهم أخوهم شعيب كبقية الأنبياء والرسول كما مر آنفاً، وسبب ذلك أن شعيب عندما أرسل إلى قومه في مدين سماه أخاً

¹⁶ الشيباني والسرخسي: شرح السير الكبير، تحقق: محمد الشافعي (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1997م) 70/2.

¹⁷ الغزالي: فقه السيرة، تحقق: الألباني (دمشق، دار القلم، ط7، 1998م) ص67.

¹⁸ الألباني: صحيح الجامع الصغير 129/1.

¹⁹ سورة الأعراف الآية 65.

²⁰ السورة نفسها 73.

²¹ سورة الشعراء الآية 142.

²² السورة نفسها 106.

²³ السورة نفسها 161.

²⁴ السورة نفسها 124.

²⁵ سورة الأعراف الآية 85.

²⁶ سورة الشعراء الآية 177.

لهم، وعندما أرسل إلى غير قومه وهم أصحاب الأيكة لم يسميه أخا، فهذه هي الاخوة القومية.

أما الأخوة الدينية فهي نوع آخر من أنواع الاخوة، حيث هنا تربط بين أبناء الدين الواحد الرابطة الدينية، ولهذا قال تعالى {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوِيكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} ²⁷، ولا يعني هذا أن هذه الاخوة تنفي وتزيع وتزيل الاخوة الإنسانية والوطنية والقومية، فكل صنف في محله، وكل أخوة في موقعها، ولولا هذا التصنيف والتقسيم لتحول العالم كله إلى صراع وصدام، ولتمزقت المجتمعات الإنسانية برمتها، حيث ستظهر الصراعات القومية والوطنية والعرقية والدينية والمذهبية والعقدية والأيدولوجية، وحينئذ ستطغى الفوضى والحرب والصراع والصدام على مبادئ السلم والأمن والنظام، ولا جرم أن الإنسانية في الماضي عانت ما فيه الكفاية من هذه الصراعات، فقمم بالبشرية أن تعود إلى رشدها، وتناى بنفسها عن التاريخ الأسود القاتم.

إن التعايش السلمي لا يمكن أن يتحقق إن لم نؤمن بهذا التقسيم الأنف الذكر حول الاخوة بجميع أصنافها، فعندما أدرك أن كل إنسان في هذا الوجود وهذا الكون أخ لي في الإنسانية بغض الطرف عن هويته وانتمائه ووطنه ودينه ومذهبه وعقيدته، فسيتحقق التعايش بصورة عادية واعتيادية، وعندما أدرك أن كل كردستاني أخ لي في هذا الوطن، فسيتحقق التعايش بصورة مباشرة دون عناء، وعندما أدرك أن كل مسلم كردي أخ لي في القومية فسيتحقق التعايش بصورة سلسلة، وعندما أدرك أن كل مسلم أخ لي في الإسلام بغض الطرف عن مذهب وعقيدته فسيتحقق التعايش بصورة واضحة جلية، وهذه هي أساسيات التعايش السلمي، وعليه، فمن الضروري التركيز على هذه الأساسيات لبناء مجتمع مسالم آمن مطمئن، بعيد عن العنف وإنكار الآخر وإقصائه عن مسار الحياة الطبيعية.

التعايش السلمي في الإسلام

هناك نصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية تؤكد حقيقة هذا التعايش، فليست المسألة مسألة اجتهادية، ولا بدعا من القول، ولا ليا لأعناق النصوص من أجل تحقيق أمر ما، أو سياسة ما، فالمسألة جلية واضحة، ولكن لا بد من بيانها وإيضاحها، وذلك لأن بعض الجهات التكفيرية تحاول طمس هذه الحقيقة بنصوص أخرى من كتاب الله وسنة رسوله، ولكن بصورة مشوهة تجعل القرآن كتاب إرهاب، لا سلم فيه، ومن محمد(صلى الله عليه وسلم) رجل حرب، لا رحمة في قلبه، مع أن الحقيقة التي لا مجمعة فيها أن الإسلام دين السلم والأمان والرحمة والاخوة، فجميع النصوص من كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) التي تناولت الحرب والقتال والجهاد وردت في حالات نادرة، وهي حالات الحرب عندما

²⁷ سورة الحجرات الآية 10.

يتعرض المسلمون للاعتداء من قبل غيرهم، لأن الأصل في الإسلام السلم لا الحرب، ثم إن الجهاد في الإسلام للدفع وليس للطلب، وهذه مسألة فقهية لا يمكن الحديث عنها ههنا، ولكن الذي أريد التأكيد عليه أن الإسلام بنصوصه القرآنية والحديثية تؤكد هذه الحقيقة، فليس التعايش السلمي في الإسلام شيئاً جديداً، بل حقيقة نادى بها القرآن والرسول، ومضى على ذلك الصحابة والسلف الصالح، ولا ريب أن التاريخ الإسلامي ليس تاريخاً مثالياً، حيث هناك حالات كثيرة تجاوز المسلمون تلك الحدود التي رسمها النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهي تبقى حالات بشرية شخصية مصلحية سياسية إدارية، وهي مخالفة لفلسفة الإسلام الناصعة التي رسخها النبي (صلى الله عليه وسلم).

التعايش السلمي في القرآن الكريم

نبدأ أولاً بالتركيز على الآيات القرآنية، يؤكد القرآن الكريم أن الإنسان حر، ويرفض رفضاً قاطعاً إكراه الناس على عقيدة ما، مع أن الإسلام هو دين الله الحق، قال تعالى { إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ }²⁸، وقال { وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ }²⁹ فإذا كان الإكراه على دين حق أنزله الله من عليائه مرفوضاً، فكيف الإكراه على ما دونه، وكيف الإكراه على مذهب أو فكرة أو قناعة شخصية، لذا لا بد للإنسان أن يختار لنفسه الحقيقة التي هو مقتنع بها، ولهذا حذر الله نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) من الإقدام على أمر كهذا، لأنه منافع لتكريم الإنسان، ومنافع لطبيعته وجبلته وفطرته، قال تعالى { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ }³⁰، وقال تعالى { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ }³¹، وقال { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ }³²، وقال { إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا }³³، وقال { وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ }³⁴، وقال { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ }³⁵، وقال { نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ }³⁶، وقال { وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ }³⁷ وقال { وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

²⁸ سورة آل عمران الآية 19.

²⁹ سورة النساء الآية 85.

³⁰ سورة البقرة الآية 256.

³¹ سورة يونس الآية 99.

³² سورة الكهف الآية 29.

³³ سورة الإنسان الآية 3.

³⁴ سورة البلد الآية 10.

³⁵ سورة الغاشية الآية 21-22.

³⁶ سورة ق الآية 45.

³⁷ سورة الأنعام الآية 66.

أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بَوَكِيلٌ} ³⁸، وقال { قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ، وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ } ³⁹ وقال { إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} ⁴⁰ وقال { الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} ⁴¹ { وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} ⁴²، وقال { فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ} ⁴³، وقال { مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا} ⁴⁴، وقال {وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} ⁴⁵.

هذه النصوص القرآنية لا تدع مجالاً للشك أن الإنسان حر في إرادته واختياره، ونجد فيها التحذير الشديد لرسوله من أن يتخذ خطوة واحدة تجاه إكراه الناس وإجبارهم على الدخول في الإسلام، لأن من يدخل ديناً من غير قناعة، سيتحول في نهاية الأمر إلى منافق يعادي الدين سرا، لكونه خائفاً، وعندما يزول عامل الخوف سيتحول إلى عدو صارخ يعاديه جهاراً نهاراً، وهذه حقيقة يدركها القاريء الحصيف في بعض الدول المسلمة المعاصرة، حيث نجد أنها أي تلك الدول لا تنتج إلا منافقين وملحدين، بينما الدول الحرة لا تنتج إلا أناساً أحراراً يختارون لأنفسهم ما يعتقدونه من دين أو عقيدة، ومعلوم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يكره أحداً في الدخول في الإسلام، كل ما في الأمر أنه كان يتمنى ويحاول بشق الأنفس أن يدخل الناس في هذا الدين، ويضيق صدره بعدم دخول الناس في هذا الدين، ومع ذلك قال الله تعالى لنبيه { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } ⁴⁶، وقال { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} ⁴⁷، وعندما حزن النبي (صلى الله عليه وسلم) على عدم إيمان قومه بهذا الدين، فقال له تعالى { أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَأَهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} ⁴⁸.

³⁸ سورة الأنعام الآية 107.

³⁹ سورة يونس الآية 108-109.

⁴⁰ سورة الزمر الآية 41.

⁴¹ سورة الشورى الآية 6.

⁴² سورة الرعد الآية 40.

⁴³ سورة الشورى الآية 48.

⁴⁴ سورة النساء الآية 80.

⁴⁵ سورة المائدة الآية 92.

⁴⁶ سورة الشعراء الآية 6.

⁴⁷ سورة الكهف الآية 3.

⁴⁸ سورة فاطر الآية 8.

ولقد وصى الله تعالى المسلمين أن يحسنوا إلى الذين يعيشون معهم بسلام وأمان، ولم يكونوا سببا في الإساءة إليهم، ولم يشكّلوا خطرا على مصالحهم وأمنهم، قال تعالى { لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ }⁴⁹.

التعايش السلمي في السنة النبوية

وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد نصارى نجران بالمدينة وهم ستون راكباً، منهم: أربعة وعشرون رجلاً من أشرفهم، فدخلوا عليه (صلى الله عليه وسلم) مسجده بعد صلاة العصر، فحانت صلاتهم، فقاموا يُصَلُّون في مسجده، فأراد الناسُ منعهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوهم، فاستقبلوا المشرق، فَصَلُّوا صَلَاتَهُمْ،⁵⁰، هذا أول حوار يحصل بين ديانتين، ولقد التزم النبي (صلى الله عليه وسلم) بأداب الحوار وبروتوكولاته، حيث يدرك النبي (صلى الله عليه وسلم) تماماً أن هذه الديانة طالت يد التحريف إليها، ولكنه أراد أن يعطي للحوار معنى، ويعطي للإنسان المخالف حرية الاختيار وحرية الإرادة، وفي الوقت نفسه منع أصحابه من الإقدام على شيء يفسد هذا الحوار، لأن ذلك لبنة طيبة وصالحة لبناء مجتمع يعترف أبناءه بعضهم ببعض، وذلك لكي يختفي مفهوم إقصاء الآخر وإلغائه نهائياً في أبعديات التصور الإنساني، وهذه التربية استقاها النبي (صلى الله عليه وسلم) من ربه، وقد مرت النصوص القرآنية الكثيرة حول ذلك، وبهذا الأسلوب الرباني، والمنهج الإلهي دخل الناس في هذا الدين، لأنه دين هداية وإصلاح للإنسان، وليس دين قسر وإكراه وإجبار، وما وقع في التاريخ من حالات لا تمت إلى فلسفة الإسلام بصلة، بل هي سياسات طائشة وأعمال غير حضارية وسلوكيات غير إنسانية يرفضها الإسلام رفضاً.

قال (صلى الله عليه وسلم): "ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة"⁵¹، وقال: "من قتل معاهداً له ذمة الله وذمة رسوله، لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة سبعين عاماً"⁵²، ولقد أوصى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأهل مصر خيراً، حيث قال (صلى الله عليه وسلم): "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتوها، فاحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً، أو قال ذمة وصهر"⁵³. قال النووي في شرحه: "وإما الذمة فهي الحرمة والحق وهي هنا

⁴⁹ سورة الممتحنة الآية 8-9.

⁵⁰ ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد (بيروت، ط3، 1406هـ، 1986م) 629/3.

⁵¹ الألباني: سلسلة الأحاديث الصحيحة 1/444.

⁵² الألباني: صحيح ابن ماجه 2/106.

⁵³ رواه مسلم في صحيحه 7/190، رقم الحديث 6658.

بمعنى الذمام وأما الرحم فلكون هاجر أم إسماعيل منهم وأما الصهر فلكون مارية أم إبراهيم منهم⁵⁴.

ولقد قبل النبي(صلى الله عليه وسلم) دعوة اليهودي عندما استضافه للأكل معه في بيته، وكان ذلك طبيعياً، لقوله تعالى: { وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ }⁵⁵ عن أنس: " أن خياطاً، وفي رواية يهودياً بالمدينة دعا النبي صلى الله عليه وسلم لطعامه، قال: فإذا خبز شعير بإهالة سنخة⁵⁶، وإذا فيها قرع، قال: فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم يعجبه القرع، قال أنس: لم يزل يعجبني القرع منذ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه"⁵⁷، وكان(صلى الله عليه وسلم) يزور مرضى أهل الكتاب، فمرة قام بزيارة الغلام اليهودي الذي كان يخدمه، فعن أنس (رضي الله عنه) قال: أن غلاماً من اليهود كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم يعبده، ففقد عند رأسه. فقال: "أسلم". فنظر إلى أبيه وهو عند رأسه. فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم، فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: " الحمد لله الذي أنقذه من النار"⁵⁸، بل وصل الأمر إلى درجة أن النبي(صلى الله عليه وسلم) جعل درعه مرهونة عند يهودي من أجل الحصول على طعام لأهله، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: " توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من شعير"⁵⁹، ولا يتصورن أحد أن النبي(صلى الله عليه وسلم) لم يكن قادراً أن يعيد درعه عند اليهودي، وكان بمقدوره ذلك، وحتى كان بمقدور الصحابة القيام بذلك، لأن فيهم الأغنياء والأثرياء، لأن ثلاثين صاعاً من شعير ليس بالطعام الكثير، وهو لا يساوي كثيراً عند أغنياء الصحابة، ولكن النبي (صلى الله عليه وسلم) أراد أن يعلم أمته الصبر والتشرف وعدم سؤال الناس شيئاً، ثم ربما لم يرد النبي إعادة درعه من اليهودي ليكون علامة على توطيد العلاقة بين المسلمين واليهود، وأنه ربما لم يحتج إليه، وخاصة أنه قد ثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) تصدق على أهل بيت من اليهود بصدقة، وهي تجري عليهم، فعن سعيد بن المسيب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تصدق على أهل بيت من اليهود بصدقة، فهي تجري عليهم"⁶⁰. وهذا يؤكد صحة ما ذكرنا في كونه (صلى الله عليه وسلم) لم يحتج إليه، وغدا مستغنياً عن ذلك.

وقد ورد أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قام لجنزة يهودي، وسار على هذه الطريقة الصحابة بعده، رغم اعتراض بعضهم، ولكن الجواب المنطقي من قبل

⁵⁴ النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (بيروت، ار إحياء التراث العربي، ط2، 1392) 97/16.

⁵⁵ سورة المائدة الآية .

⁵⁶ الإهالة: هي كل شيء من الأدهان مما يؤتمد به وقيل غير ذلك، والسنخة: المتغيرة الريح.

⁵⁷ الألباني:سلسلة الأحاديث الصحيحة 128/5.

⁵⁸ المرجع الثاني 209/1.

⁵⁹ رواه البخاري في صحيحه رقم الحديث (2759) باب ما قيل في درع النبي(صلى الله عليه وسلم).

⁶⁰ ابن زنجويه: الأموال، تحقق: شاكِر ذيب فياض(السعودية، مركز فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1406هـ، 1986م)ص1211.

رسول الله (صلى الله عليه و سلم) أن هذه الجنازة لإنسان، والإنسان مكرم بذاته، بغض الطرف عن هويته وفكره وعقيدته، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : كان ابن حنيف وقيس ابن سعد قاعدين بالقادسية فمر عليهما بجنازة فقاما فقيل لهما : إنها من أهل الأرض أي من أهل الذمة فقالا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرت به جنازة فقام فقيل له : إنها جنازة يهودي . فقال : " أليست نفسا؟"⁶¹، ونلفي صحابيا كابن عمرو يذبح شاة، ويوزعها، فيبدأ بجاره اليهودي قبل جاره المسلم، فعن مجاهد قال: كنت عند عبد الله بن عمرو - وغلماه يسلم شاة - فقال: يا غلام، إذا فرغت فابدأ بجارنا اليهودي، فقال رجل من القوم: لليهودي أصلحك الله؟ قال: إني سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يوصي بالجار، حتى خشينا أو رؤينا أنه سيورثه"⁶²، ولهذا قال القرافي: " فمن اعتدى عليهم - أهل الذمة- ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمة الله تعالى وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم وذمة دين الإسلام"⁶³.

التعايش السلمي عند الصحابة

كان الخلفاء الراشدون والصحابة يسيرون على درب رسول الله، في إدارة الناس وتسيبهم، وخاصة إذا كان الأمر متعلقا بغير المسلمين، فنجد الحيطة والحذر الشديد عندهم، مخافة الوقوع في الظلم والغبن والطيش والشطط، ولعل أبرز من تعامل مع غير المسلمين هو الخليفة العادل عمر الفاروق (رضي الله عنه) فقد ملأ الكون عدلا، ولم يترك العدل له صديقا، ولا الحق له محبا، ولعلنا نذكر بعض مواقفه تجاه غير المسلمين، كتب عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) لأهل إيلياء: "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم"⁶⁴. ولما استشهد بيد المجوس من قبل أبي لؤلؤة الفيروزي، قال وهو في سكرات الموت وغمراته لمن بعده: "وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من وراءهم ولا يكلفوا إلا طاقتهم"⁶⁵.

ولما ذهب لاستلام مفاتيح بيت المقدس دخل كنيسة، فلما حضرت الصلاة خرج منها، فقال بعض النصارى: صل فيها، قال: لو صليت فيها لأخذها العرب

⁶¹ الخطيب التبريزي: مشكاة المصابيح، تحقق: الألباني (بيروت، المكتب الإسلامي، ط3، 1405 - 1985م) 379/1.

⁶² الألباني: صحيح الأدب المفرد ص61.

⁶³ القرافي: الفروق أو أنوار البروق في أنواء الفروق: تحقق: خليل المنصور (بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط. 1418هـ، 1998م) 29/3.

⁶⁴ تاريخ الطبري (دم.ط.ت) 105/3.

⁶⁵ الألباني: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (بيروت، المكتب الإسلامي، ط2، 1405، 1985م) 74/6.

منكم، يقولون: نصلي كما صلى عمر، فيحتلونها ويأخذونها منكم. لم يمنع عمر من الصلاة فيها إلا خوفه من المسلمين من بعده أن يأخذوا الكنيسة من النصارى غضباً، بحجة أن أمير المؤمنين صلى فيها، وهذا يكفي لتحويلها إلى مسجد⁶⁶.

وثبت أن عمر بن الخطاب قال لعجوز نصرانية: أيتها العجوز أسلمي تسلمي، إن الله تعالى بعث إلينا محمداً (صلى الله عليه وسلم) بالحق. فقالت العجوز: وأنا عجوز كبيرة، وأموت إلى قريب، فقال عمر: اللهم أشهد، لا إكراه في الدين⁶⁷.

: "ولما قدم عمر بن الخطاب رضى الله عنه الجابية استعار ثوباً من نصراني قلبسه، حتى خاطوا له قميصه وغسلوه. وتوضأ من نجرة نصرانية⁶⁸".

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: "كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ جاءه رجل من أهل مصر، فقال: "يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك"، قال: "وما لك؟"، قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل فأقبلت، فلما تراها الناس، قام محمد بن عمرو فقال: "فرسي ورب الكعبة، فلما دنا منه عرفته، فقلت: فرسي ورب الكعبة، فقام إليّ يضربني بالسوط، ويقول: "خذها وأنا ابن الأكرمين". قال: فوالله ما زاده عمر أن قال له: "اجلس، ثم كتب إلى عمرو إذا جاءك كتابي هذا فأقبل، وأقبل معك بابنك محمد، قال: فدعا عمرو ابنه فقال: "أحدثت حدثاً؟ أجريت جناية؟"، قال: "لا"، قال: "فما بال عمر يكتب فيك؟"، قال: فقدم على عمر، قال أنس: فوالله إنا عند عمر حتى إذا نحن بعمرو، وقد أقبل في إزار ورداء، فجعل عمر يلتفت هل يرى ابنه؟، فإذا هو خلف أبيه، قال: "أين المصري؟"، قال: "ها أنا ذا"، قال: "دونك الدرة فاضرب ابن الأكرمين، اضرب ابن الأكرمين، قال فضربه حتى أتخنه، ثم قال: أحلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بفضل سلطانه، فقال: "يا أمير المؤمنين، قد ضربت من ضربني"، قال: "أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذي تدعه، يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟"، ثم التفت إلى المصري فقال: "انصرف راشداً فإن ربك ريب فاكتب إلي⁶⁹".

تعد هذه القصة من أروع القصص التي تناولت عدالة عمر (رضي الله عنه) مع رعيته وواليه، فهنا طلب عمر من واليه على مصر عمرو بن العاص أن يحضر هو وابنه من مصر إلى المدينة، ويقطع هذه المسافة الطويلة والشاقة، بناء على شكوى من رجل مصري لا يعرفه عمر، ثم يطلب من المصري أن يفتص من ابن عمرو بن العاص، وبعد أن ضربه المصري، طلب عمر بن الخطاب من المصري أن يضرب والده، لكن المصري امتنع، لأن الولد استغل سلطة والده، كان بإمكان

⁶⁶ شرح بلوغ المرام للشيخ عطية بن محمد سالم نسخة مصورة ص174.

⁶⁷ ابن حزم: المحلى، تحقق: محمد منير الدمشقي(د.م). الطباعة المنيرية، ط1، 1352هـ) /11

.196

⁶⁸ ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصادد الشيطان تحقيق: محمد حامد الفقي (بيروت، دار المعرفة، ط2، 1395هـ، 1975م) 1/153.

⁶⁹ المبرد: محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب 472/2.

عمر أن يرسل شخصا للتحقيق، ولكنه أراد أن يشرف على ذلك بنفسه، ويرى المصري وغيره عدالة الإسلام، تلك العدالة التي قامت عليها الدنيا والآخرة، ولهذا لم يترك العدل صديقا لعمر.

ويتكرر المشهد مع علي بن أبي طالب، حيث هذه المرة يحدث نزاع بين علي وهو أمير المؤمنين وبين يهودي سرق درع علي، فيتحاكمان إلى قاضي أمير المؤمنين، فوَقْتَنُذ يَعْتَرِف الْيَهُودِي بِصَدَقَ هَذَا الدِّينِ، وَيَعْتَرِفُ بِخَطْأهِ فَعَنْ شَرِيحِ الْقَاضِي قَالَ: | لَمَّا تَوَجَّهَ عَلِيٌّ إِلَى صَفِينِ، افْتَقَدَ دَرَعًا لَهُ، فَلَمَّا انْقَضَتِ الْحَرْبُ وَرَجَعَ إِلَى الْكُوفَةِ، أَصَابَ الدَّرْعَ فِي يَدِ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: الدَّرْعُ دَرْعِي، لَمْ أَبْعِ وَ لَمْ أَهْبِ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: دَرْعِي وَفِي يَدِي، فَقَالَ: نَصِيرُ إِلَى الْقَاضِي، فَتَقَدَّمَ عَلِيٌّ فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِ شَرِيحٍ... فَقَالَ شَرِيحٌ: قُلْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: نَعَمْ هَذِهِ الدَّرْعُ الَّتِي فِي يَدِ هَذِهِ الْيَهُودِيِّ دَرْعِي لَمْ أَبْعِ وَلَمْ أَهْبِ، فَقَالَ شَرِيحٌ: أَيْشَ تَقُولُ يَا يَهُودِيٍّ؟ قَالَ: دَرْعِي وَفِي يَدِي، فَقَالَ شَرِيحٌ: أَلَيْكَ بَيْنَةٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: نَعَمْ: قَنْبَرٌ وَ الْحَسَنُ يَشْهَدَانِ أَنَّ الدَّرْعَ دَرْعِي، فَقَالَ شَرِيحٌ: شَهَادَةُ الْإِبْنِ لَا تَجُوزُ لِلْأَبِ، فَقَالَ عَلِيٌّ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ سَلَّمَ) يَقُولُ (الْحَسَنُ وَ الْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ)، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدَمْنِي إِلَى قَاضِيهِ، وَقَاضِيَهُ قَضَى عَلَيْهِ، أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، وَ أَنَّ الدَّرْعَ دَرْعُكَ"⁷⁰.

: " وَصَلَّى سَلْمَانَ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي بَيْتِ نَصْرَانِيَّةٍ. فَقَالَ لَهَا أَبُو الدَّرْدَاءِ: "هَلْ فِي بَيْتِكَ مَكَانٌ طَاهِرٌ فَنُصَلِّيَ فِيهِ؟" فَقَالَتْ: طَهَّرْتُ قُلُوبَكُمْ، ثُمَّ صَلَّيَا إِيْنَا أَحْبَبْتُمَا. فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: "خَذْهَا مِنْ غَيْرِ فَقِيهِ"⁷¹.

نجد موقفا آخر من قاضي بغداد، وهو من أعمدة المالكية، مع الوزير المسيحي عبدون بن صاعد وزير الخليفة المعتضد: "حدث الدارقطني أن إسماعيل القاضي دخل عنده عبدون بن صاعد الوزير، فقام له ورحب به. فرأى إنكار الشهود ذلك، فلما خرج قال: قد علمت إنكاركم، وقد قال الله تعالى: "{ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين... الآية }، وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين، وهو سفير بيننا وبين المعتضد.... وهذا من البر، فسكنت الجماعة عند ذلك"⁷².

التعايش السلمي في كردستان

لكي نحقق التعايش السلمي في كردستان أو أي مكان في العالم لا بد من العمل على تأسيس حوار ناجح مثمر، وذلك لأن الحوار أساس التعايش السلمي، ولقد ذكر اللاهوتي السويسري هانز كونج أنه لا سلام بين الديانات إذا لم يكن ثمة حوار، وهذا الحوار لا بد أن يكون حوارا جديا لا تكتيكيًا، حوار من أجل تحقيق تعايش سلمي حقيقي يضمن مستقبلا زاهرا للأجيال القادمة، ويكون قاعدة أساسية لبناء

⁷⁰ السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقق: محمد محي الدين عبد الحميد(مصر، مطبعة السعادة، ط1، 1371هـ، 1952م) ص157.

⁷¹ ابن قيم الجوزية: إغاثة اللفهان 153/1.

⁷² القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك (دم.طبت) 167/2.

مجتمع مسالم بعيد عن ثقافة الكراهية وإلغاء الآخر، كما هو الحال في بعض البلدان مع الأسف الأسف.

لا يخلو دين من الأديان سواء كان سماويا (إبراهيميا) أو دينا أرضيا من مجموعة متطرفة تحاول دوما إجهاض مشروع الحوار، بحجة أن الحوار يقتضي التنازل عن العقائد الأساسية، ويقتضي في الوقت نفسه الاعتراف بالدين الآخر، وهؤلاء هم المحافظون في زعمهم، ومعلوم أن ذلك كله غير صحيح، فالاعتراف بالآخر لا يقتضي الاعتراف بأحقية دينه، ولا يقتضي التنازل عن العقائد الأساسية، فالأمر كله متعلق بإيجاد أرضية خصبة للتعايش المشترك، والاتفاق على الأصول المشتركة، فيما يحقق للطرفين السلم الاجتماعي والتعايش الديني الآمن، ولقد اعترف الإسلام بفلسفة الحوار كقاعدة أساسية لبناء مجتمع مسالم، ولسنا بحاجة إلى إعادة الحديث عن ذلك، فقد مر ذكره، لكن أرى من الضروري الإشارة إلى الآية التي أسست ورسخت مفهوم الحوار، قال تعالى { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ }⁷³، فلقد

خلق الله تعالى الناس على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وقومياتهم ومذاهبهم وعقائدهم ودياناتهم، من أجل أن نتعارف، وهذا التعارف ليس مجرد معرفة بعضنا ببعض فقط، بل الأمر أعظم من ذلك، هذا التعارف يعني الحوار والتعاون والتضامن، وإلا أي غرض يمكن أن يتحقق بمجرد معرفة بعضنا ببعض، فلقد غدا جليا أننا نعيش في عصر يمكننا أن نتعارف من غير أن نلتقي، فالغاية التي تغياها الآية تحقيق العمل المشترك، والمنافسة إلى فعل الخيرات، فخير الناس من نفع الناس، فلو لم يكن الهدف ما ذكرناه لكان مفهوم التعارف صفرا خاليا لا معنى له، يقول سيد قطب في تفسير الآية: "يا أيها الناس، يا أيها المختلفون أجناسا وألوانا، المتفرقون شعوبا وقبائل، إنكم من أصل واحد، فلا تختلفوا ولا تتفرقوا ولا تتخاصموا ولا تذهبوا بددا، يا أيها الناس، والذي يناديكم هذا النداء هو الذي خلقكم من ذكر وأنثى، وهو يطالعكم على الغاية من جعلكم شعوبا وقبائل، إنها ليست للتناحر والخصام، إنما هي التعارف والوئام، فأما اختلاف الألسنة والألوان، واختلاف الطباع والأخلاق، واختلاف المواهب والاستعدادات، فتنوع لا يقتضي النزاع والشقاق، بل يقتضي التعاون للنهوض بجميع التكاليف والوفاء بجميع الحاجات"⁷⁴.

عندما نتحدث عن الحوار لا نقصد به هنا الحوار بين الأديان فقط، بل هو حوار بين كل طرفين، بين دين ودين آخر، بين مذهب ومذهب آخر، وبين قومية وقومية أخرى، بين بلد وبلد آخر وهلم جرا، لأن المقصد الأعلى من ذلك تحقيق حياة آمنة لجميع الأطراف المتباينة في هذه القرية الصغيرة، لكن الحوار إذا أطلق أريد به الحوار بين الأديان، وذلك لأهميته القصوى، فلو تحقق ذلك لكان ما دونه أهون. أطلق المجمع الفاتيكاني الثاني دعوة للحوار بين الإسلام والمسيحية، وذلك من أجل نسيان الماضي، والإنصراف باخلاص للتفاهم المتبادل، ويذكر جورافسكي

⁷³ سورة الحجرات الآية 13.

⁷⁴ سيد قطب: في ظلال القرآن (د.م. دار الشروق) 311/14.

أن هذه الدعوة بين أوساط الكنيسة الكاثوليكية أنتجت ثلاث نزعات من حيث الموقف من هذا الحوار، أي الحوار الإسلامي المسيحي، النزعة الأولى وهي الأكثرية حيث أيدت الحوار انطلاقاً من قرارات المجمع الفاتيكاني ووثائق الفاتيكاني والرسائل البابوية اللاحقة... أما أنصار النزعة الثانية، فإنهم لا يمانعون من حيث المبدأ في إقامة الحوار بين الديانتين، لأنهم يشترطون في إقامته ضمن المجال الدنيوي البحث... بينما تتجلى مواقف النزعة الثالثة، ومنطلقاتهم في رسالة الأسقف اللبناني ب. بسيم إلى الكاردينال بينيدولي الذي ترأس سر اللجنة الخاصة بشؤون الديانات غير المسيحية (1977)... يؤكد بسيم أن الشكل الوحيد المقبول لدى المسلمين فيما يخص النسق الاجتماعي - السياسي هو الأمة، أي الجماعة الإسلامية - الثيوقراطية، التي تضع المسلمين (الأغلبية) في مرتبة المحامي و الراعي لديانات الأقليات الأخرى... وهذا الواقع يحول وحده دون إقامة أي حوار مفيد بين الديانتين⁷⁵.

لكن النزعة الأولى هي التي انتصرت على بقية النزعات لضرورة الحوار، فلو لم يكن ثمة حوار لحل محله التصادم والتنازع والصراع، وهذه فرصة ذهبية لأشباع التيار المتطرف في الأديان المختلفة للقضاء على أبجديات الحوار وأسسها وقواعده، وفي النهاية سيكون المتضرر الأول والخاسر الأكبر في هذا الصراع أتباع الديانات من المعتدلين من الذين يحملون أملاً للأجيال القادمة، وسلاماً للبشرية جمعاء، لا ريب أن هذا الحوار عويص من الناحية العملية، لكن مجرد وجوده والإيمان به والدعوة إليه خطوة في الاتجاه الصحيح، فهو بمرور الزمن سيتحول إلى واقع عملي، فلو قارنا بين السنين التي خلت، لوجدنا تطوراً ملحوظاً في الحوار والتعاون والتضامن، لا أحد ينكر بعض المعوقات والمشاكل، لكنها طبيعية فيما يخص حواراً بين ديانتين عاشا أتباعهما قرناً طويلة في صراع مرير وصدام عنيف.

ومن الضروري الإشارة إلى بعض هذه المحاولات التي جرت في السنوات الماضية من أجل تحقيق حوار جدي حقيقي بين الأديان وخاصة الحوار بين الإسلام والمسيحية، ففي سنة (1965م) تحدث كاردينال الكنيسة الكاثوليكية ف. كينينغ أمام العلماء المسلمين في جامعة الأزهر، وهي هي المرة الأولى منذ ألف سنة تقريباً يتحدث في هذه الجامعة رجل دين مسيحي، ومنذ ذلك الحين تجري اللقاءات الإسلامية المسيحية بصورة مستمرة، وبعد مرور سنوات دعي الكاردينال بينيدولي إلى زيارة جامعة الأزهر، وفي سنة (1974م) قام سكرتير (أمين سر) أمانة شؤون الديانات غير المسيحية الكاردينال بينيدولي بزيارة للسعودية، التقى الملك فهد، وفي السنة نفسها قام وفد من العلماء المسلمين من السعودية بزيارة الفاتيكاني. ويمكن إيجاز أهم هذه المؤتمرات والندوات واللقاءات التي عقدت حول الحوار بين الأديان، وخاصة بين الإسلام والمسيحية:

- 1) إيطاليا (1973م) و (1985م).
- 2) قرطبة (1974م) و (1977م)، وفي مدريد (1978م).

⁷⁵ أليكس جورافسكي: ص 146-147.

- 3) تونس (1974م) و(1979).
- 4) طرابلس (1976م).
- 5) سويسرا (1977م).
- 6) النمسا (1977م) و(1978م).
- 7) البرتغال (1977م) عقد مؤتمر بين الديانات التوحيدية الثلاث.
- 8) بيروت (1977م).
- 9) فرنسا (1979م).
- 10) أستراليا (1979م) و(1980م).
- 11) ماليزيا (1979م).
- 12) يوغوسلافيا (1981م).
- 13) سريلانكا (1982م).
- 14) القدس (1984م).
- 15) زيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى المغرب بدعوة من الملك الحسن الثاني سنة (1985) وألقى كلمة لثمانين ألفا من الشباب في الملعب الرياضي بدار البيضاء.
- 16) زيارة البابا يوحنا بولس الثاني إلى كل من نيروبي وغانا للقاء ممثلي الجماعات الإسلامية في سنة (1980م).
- 17) زيارة البابا بولس الثاني للفلبين للقاء الأقلية المسلمة سنة (1981م).

ولا تزال هذه المؤتمرات والندوات واللقاءات مستمرة، وهي في حقيقتها تخدم البشرية بصورة عامة، وبذلك نستطيع أن نحقق السلام والأمن، ونحارب ثقافة العداة والكراهية، وإلغاء الآخر وإقصاءه.

نعود لنذكر أسطرا حول التعايش السلمي بين الأديان في كردستان، عاش أبناء الديانات الأخرى كاليهود والمسيحيين والإيزيديين والكاكائيين في كردستان عبر القرون في سلام ووثام وأمان واستقرار، وشارك الجميع في بناء كردستان، وفي إثراء ثقافتها وتطوير مدنيها، فقدموا تضحيات جسام في سبيل هذا الوطن، ولا إخال أن أحدا ينكر ذلك، فالتاريخ الكردستاني حافل بالوقائع والأحداث التي تثبت هذه الحقيقة التاريخية، وعليه، فلقد عاش الجميع كشعب واحد ينتمي إلى وطن واحد يربطهم الإلتناء إلى الوطن، ولا مجال للتطرق إلى هذه المسألة بتفصيل.

لا جرم أن كردستان جزء من العالم الإسلامي، فلا يمكن أن نكون منفصلين عن هذا الواقع، وخاصة أن تهديدات الجماعات التكفيرية جدية بحق أتباع الديانات الأخرى، وبالأخص المسيحيين، ولقد تعرضوا لهجمات منظمة شرسة من قبل تلك الجماعات مما اضطرروا إلى ترك العراق والاستقرار في كردستان، وهم الآن آمنون ومطمئنون، ولا يشعرون بالغرابة.

إن تاريخ كردستان يشهد على حقيقة هذا التعايش السلمي بين الأديان، حيث كان أتباع تلك الأديان بمرور الزمن يعيشون معا، الى درجة أن لا يشعر

أحدهم بانتماء الآخر، بل كان طبيعياً أن يزور بعضهم بعضاً في جل المناسبات، وخاصة القرى، ولا أريد الحديث بتفصيل عن ذلك، لأن الباحث قد تناول هذا الموضوع في كتاب آخر له⁷⁶، ولكن لا بأس أن نذكر بعض الأمثلة لبيان هذه الحقيقة التي نحن بصدد إثباتها.

لا ريب أن ثمة حالات مؤسفة وقعت في تاريخ كردستان من المعارك والاعتداء والظلم بحق أتباع الديانات الأخرى، ولكن في تقديري كانت تلك الحالات عبارة عن نزاعات اجتماعية ومشاكل عائلية واقتصادية تحولت إلى صراعات دينية من أجل تحقيق بعض المكاسب الشخصية أو القبلية وهلم جرا، ولكن الخط العام والوعي الجمعي كان ضد هذه المحاولات اليائسة، وخاصة نجد هنا دور مشيخة وعلماء المنطقة في إخماد هذه الفتن الخطيرة، وسنذكر بعض هذه النماذج التي تفتخر بها كردستان في تاريخها، وسيكون الحديث أكثر حول المسيحيين، لكونهم يمثلون الأغلبية بين أتباع الديانات الأخرى كالإيزيدية والكاكائية:

موقف الشيخ عبد القادر النهري من المسيحيين

في خريف عام (1909) أقدم الشيخ عبد القادر بجولة في أنحاء شمدينان، وعمل وهو رئيس مجلس الدولة على عقد مؤتمر كردي - أرمني، وألقى فيه خطبة، أكد فيها إخلاصه للإتحاديين، وتمسكه بمبادئهم، إلا أنه أقلق بالهم عندما تطرق فيها إلى العلاقة بين الأرمن وبين شعبه الكردي، إذ قال: "علينا أن نعيش مع الأرمن كاخوة، علينا أن نعيد لهم تلك الأراضي التي يدعون بها، والتي لم تتم استعادتها بعد، وسنعمل معاً على تقوية التفاهم والاتحاد مع إخواننا العثمانيين الآخرين"⁷⁷، يبدو أن الشيخ عبد القادر النهري يطبق سياسة والده تجاه المسيحيين، فعندما قام الشيخ عبيد الله النهري بثورته العظيمة، طلب منه أنصاره أن يسمح لهم بتقتيل نصارى أورمية، فقال: "نحن الكرد ننفع الترك في شيء واحد، وهو أن نكون أسلحة في أيديهم ضد المسيحيين، وعندما لا يبقى مسيحي في الساحة، فإنهم يقلبون ظهر المجن لنا، ويبيدوننا جميعاً"⁷⁸.

موقف الشيخ سعيد النورسي من المسيحيين

كان الشيخ سعيد النورسي أمراً عسكرياً على قوات الفرسان الحميدية في مناطق موش، وفي هذه الأثناء أمره الجنرال التركي (نوري ويسلي) بجمع كل الأرمن الموجودين في تلك المناطق سواء من الرجال والنساء أو الأطفال وقتلهم، فجمع بديع الزمان قرابة ألف وخمسمائة (1500) من الأرمن، وذهب بهم سرا على مقدمات الجبهة، وخطوط التماس مع الروس في واد، وأمر بإطعامهم، وما أن حل العصر،

⁷⁶ الحياة الدينية من نهري إلى بارزان.

⁷⁷ باسيل نيكيتين: الكرد دراسة سوسولوجية وتاريخية، ترجمة: نوري طاباني (السليمانية،

مؤسسة حمدي، ط2007، 3م) ص313.

⁷⁸ باسيل نيكيتين: الكرد ص313.

حتى أمر أحد الأرمن بالذهاب إلى الجيش الروسي، ونصحه بصياحه باستمرار (أرمن، أرمن) لكي لا يقتلوه، أخذوا وجهة نظرهم، هل هم على استعداد لفتح الطريق أمام الأرمن، يذكر أن الأرمني وصل إلى صفوف الجيش الروسي الذي أبدى قائده ترحيباً بذلك، وبهذه الطريقة تمكن بديع الزمان من إنقاذ أرواح قرابة (1500) أرمني بريء⁷⁹.

موقف مشيخة بارزان من المسيحيين

كتب نائب القنصل البريطاني في ديار بكر وهو يقول: "إن الشيخ عبد السلام بحق من أحسن شيوخ المنطقة، فلم يكن له مع الحكومة إلى فترة قريبة أية مشاكل، وهو عادل في معاملة رعيته، وحام للنصارى"⁸⁰.

وجه أندرانيك الأرمني عام (1920م) رسالة يطلب من الشيخ أحمد البارزاني إنقاذ عائلته المهتدة بالموت حسب تعبيره، من مجازر الأتراك، فلبى طلبه، وشكل فصيلة بقيادة (وليد بك)، وكان ملا مصطفى شاباً من ضمن الفصيلة، فصارت الفصيلة بين العشائر الموالية للأتراك على أنها بطريقها إلى مذبحه الأرمن، هذه الحيلة مكنتها من إنقاذ عائلة أندرانيك، ونقلها إلى الأراضي السورية⁸¹. وقد قتل من جراء هذه العملية (14) أربعة عشر شخصاً من الفرسان البارزانيين⁸².

والأمثلة عديدة حول هذه المسألة، لا نستطيع ذكرها جميعها، لأننا تناولنا هذه المسألة في موضع آخر، وما ذكرنا يكفي لإيضاح نموذج التعايش السلمي بين أتباع الديانات الأخرى.

بعد أن استقلت كردستان من الناحية الإدارية، وأصبح لشعب كردستان برلمان مستقل، وحكومة مستقلة ومستقرة، تحول الاهتمام بالديانات الأخرى إلى سياسة استراتيجية للحكومة، وللقيادة الكردية، حيث نجد في الهيكل الإداري العام الوزراء وأعضاء برلمان ومدراء ومحافظين من جميع الديانات الأخرى، وحتى في وزارة الأوقاف نجد مديرية عامة للمسيحيين ومديرية عامة للإيزيديين، وهذه السياسة أتت أكلها، وأثمرت ثماراً طيبة، وتلقت بالقبول من قبل جميع الأطراف، إلا ما كان من قبل بعض الجماعات المترزمة، وهؤلاء لا يؤبه بقولهم ولا بموقفهم، والملاحظ أن التعايش السلمي في تطور مستمر، ترك آثاراً طيبة في جميع أصقاع كردستان.

⁷⁹ مارتن فان برونسون: الأغا والشيخ والدولة البنى الاجتماعية والسياسية لكردستان، ترجمة: أمجد حسين (بيروت، دراسات عراقية، ط1، 2008) 551/2، وقارن مع ماجد محمد زاخوي: الفرسان الحميدية 1891-1923 (دهوك، مطبعة خاني، ط1، 2008) ص187.

⁸⁰ كاميران عبد الصمد أحمد الدوسكي: بهدينان في أواخر العهد العثماني 1876-1914 (أربيل، مطبعة خاني، ط1، 2007م) ص139.

⁸¹ البارزاني وشهادة التاريخ، ترجمه عنه الروسية بافي نازي وعبيدي حاجي (بيروت، دار العربية، ط1، 1427هـ، 2006م) ص33.

⁸² حةسنتى دانيشفتر: بارزاني لة ويذداني رودةهلاتي كوردستاندا (هتولير، ص1، ضائخانةى وزارةى ثروردة، 2003) 225/1. وانظر: متسعود بارزاني: بارزاني ويزووتنتوةى رزطاريخوازي كورد (هتولير، وزارةى ثروردة، 2004) 24.

